نظرات في النفس والحياة

— ٢١ —

تتمة نظرات جوتا

(١٢) أشد الصعوبات توجد حيث لا يبحث عنها الانسان سواء أكان ذلك في الحياة أو في الأدب أو في العلم . فاذا لم يجد الانسان صعوبات فليس معنى ذلك انها غير موجودة

(١٣) لو كان من المستطاع ادخار الوقت، وخزن الزمن كما يدخر المال، وكما يخزن الذهب، لحين الحاجة الى صرفه وبذله في عمل ما، لكان لذوي الكسل بعض العذر في عدم صرف وقتهم في العمل المنتج . ولكن حتى لو كان خزن الزمن وادخاره مستطاعاً ليصرفه صاحبه عند الحاجة، لكان هذا أيضاً من ضعف رأي صاحبه ، إذ يكون كمن يصرف من رأس ماله المدّخر بدل الصرف مما يربح بالعمل . والذي يصرف من رأس ماله لا من ربحه، يوشك أن يُفلس

(١٤) قيمة كل أمر في الحياة تكون على قدر معونة المرء على تكميل نفسه وتهذيبها وتثقيفها . ولعلّ في هذا بعض ما في قول هازليت : ان الإنسان إذا تمنى أن يكون إنساناً آخر فهو في الحقيقة لا يتمنى إلاّ أموراً تُكمل شخصيته الخاصّة ، كأنْ يتمنى ذكاء هذا، أو ثروة ذلك، أو سعادة آخر . إذ لو تخلّى عن نفسه وعقله وعن ذكرياته واحساساته وأفكاره لصار إنساناً آخر، فلا يفيده تحقق ما يتمناه بل يفيد هذا الشخص الآخر . وإذاً لو خُيِّر أفقر صعلوك وطُلِب منه أن يتخلى عن نفسه، وان يكون ملِكاً أو ثريّاً أو عالماً ما تصوّر إلاّ أن ينال مُلك الاول، أو ثروة الثاني، أو علم الآخر، على شرط أنْ تبقى له نفسه . وهذا مصداق قول الاسكندر المقدوني : لو لم أكن الاسكندر لتمنّيتُ أن أكون ديوجنيز (أي الفيلسوف المعروف) .

(١٥) مهما حاول الانسان أن يفسر أسباب جودة الأمور الجيدة الممتازة، فإن في جودتها صفات لا تفسر : إذ تجلّ عن التفسير وهذا يذكرني أحد أصحاب الفن الذي كان مولعاً بالنظر الى صورة موناليزا التي عنوانها المسرورة (لاجيوكوندا) . فما كتب والتر باتر وأطال في وصف أسباب جودتها وابتعاثها للسرور، قال صاحب الفن : إن أقوال والتر باتر عن هذه الصورة إنما هي من أدب الخيال وقصصه، أي ليست أسباباً حقيقية .

(١٦) إنه أمر مُحْرِجٌ حقًّا أن يمدح الرجل الممتاز، وان يعجب به الحمق والاغبياء. وكأن جوتا ينظر الى عكس قول المتنبي أو الى ما يكمل معنى بيته : —

واذا أتتك مَذَمَّتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل

واذا أتى المدح من أهل النقص كان مدحاً سريباً، وربما يخيل للسامع ان الممدوح ناقص مثلهم . وهذا يتفق أن يكون ،وقد لايكون، دليلا ولكنه محرج كما قال جوتا.

(١٧) كلما كبر الانسان ازداد تسامحاً اذا لم ينسَ أخطاءه وأغلاطه في ماضي حياته ، وإذا عامل الناس بمثل ما عامل نفسه به في تلك الأخطاء والأغلاط . وهذا شرط قلما يستقيم إذ ان نفس المرء كثيراً ما تدعوه الى نسيان أغلاطها وأخطائها، والى نسيان تسامحه مع نفسه ، بل انه كثيراً ما يحسب انه يكفر عن تسامحه مع نفسه في ذنوبها بالتشدد والعنف مع الناس اذا وقعوا في مثلها، الا اذا أراد أن يعذر نفسه بأن يعذر الناس، ولكن يمنعه من ذلك خوفه أن تظن به محاولة عذر نفسه إذا عذر الناس فيحجم عن عذرهم .

(١٨) ان صاحب الفن أو الصنع قد يجيد الصنع في فنه ، ولكنه قد يعجز عن أن يفسر سبب جودة صنعه ، كما قد يعجز عن تفسير سبب جودة صنع غيره . والواقع ان صاحب الفن قد يكون غافلاً عن جودة صنعه حتى انه قد يفضل من صُنْعَيْهِ أقلهما جودة فيحكم له بأنه يمتاز مما هو أحق بالتفضيل .

(١٩) في كل المقاصد والاغراض الانسانية إذا فصل المرء بين الأمر الواقع وبين التفكير النظري أخلَّ بالفن والحياة ، إذ أن كلاًّ منهما متمم ومصحح لأخيه .

(٢٠) عند ما علم بعض الفرنسيين أن ميرابو الخطيب كان مديناً الى حد كبير في خطبه للمادة التي جمعها له دو مونت، ظنوا ان هذا أمر ينقص من قدر ميرابو. وقد قال جوتا : كأن أمثال هؤلاء القوم يحسبون أن هيراقليز رب القوة عند الأغريق كان يستطيع أن يستغني عن الغذاء، وما كان يستغني في تلك الخرافات عنه ليظهر قوته، وكذلك العبقري انما كان عبقريًّا لقدرته على الامساك بالأمور يميناً ويساراً ولقدرته على الاستفادة منها مادة لعبقريته وعلى اعطائها حياة خاصة من لبه وإحساسه . وقال جوتا أيضاً : ان ابتكار العبقري إنما يكون بتذكريات مؤلفة تأليفاً فنيًّا ومنسقة تنسيقاً مبدعاً .

وقد ألمَّ أبو العلاء المعري بهذه المعاني وأبدع في باب التشبيه كل الابداع في قوله:

والنحل يجني المرَّ من نور الربى فيصير شهداً في طريق رضابه

أي انه يجني من الزهر ويعطي بدل ما جنى رضاب النحل ، وكذلك العبقري .

(٢١) من الصعب أن يظل المرء منفرداً عن المذاهب والجماعات لأنه إذا التحق بطائفة منها فهو حتى في حين إخفاقه وخيبته يجد الاطمئنان والسكينة والأمان . ويزداد المرء رغبة في الخير إذا اتصل بجماعة ترغب في الخير، كما يشجع على عمل الشر إذا كان في طائفة ترغب في الشر . وقول جوتا يذكرني كلمة لهازليت في صعوبة بقاء الإنسان مستقلاً عن الجماعات والأحزاب . قال : إنه تتضاءل لديه نفسه حتى يتهمها بالباطل ، وحتى يتهم رأيه إذا أخذ هذا كل الناس بالخلاف ، ويظل كأن الأرض زالت من تحت قدميه ، وظل معلقاً في الفضاء — والواقع أن من يدعي الاستقلال عن الأحزاب والجماعات يتصل بها في أمور كثيرة ، فليس هناك انفصال تام .

(٢٢) كثيراً ما تكون النظريات العامة محاولة من الرجل المتسرع القليل الصبر الذي يحاول التخلص من الظاهرات ومن الجهد المرهق الذي يقتضيه تفسيرها، فيضع مكانها صورة أو فكرة أو كلمة جوفاء ينخدع بها من لا يجرب الأمور بنفسه، بل يعتمد على الروح الحزبية بين الجماعات .

(٢٣) عند ما تفتقد الشغف بشيء والرغبة فيه ، تفقد ذكراه كما أن المرء لا يسمع ما لا يود سماعه . وهذه نظرات سيكولوجية من جوتا هي أشبه بأقوال سيجموند فرود

(٢٤) لا يستطيع المرء أن يكتسب ثقافة من غيره إلا إذا استطاع تثقيف نفسه .

(٢٥) إذا أخطأنا في المحسوسات، فليس الخطأ خطأ الحواس، بل خطأ ملكة الحكم على المحسوسات، فإنها تخطىء إذا لم تعرف حدود الحواس، وطرق استخدامها استخداماً صحيحاً .

(٢٦) كثيراً ما يتقدم من يدافع عن الباطل بلطف وأدب، بينما يعنف من يرى نفسه على حق بما يراه من الحق في نفسه فيستغني عن اللطف والأدب . لأن الأول يريد أن يكون باطله مقبولاً، فيدلف الى الناس بما تهوى قلوبهم، والثاني قد يخذل الحق الذي يدافع عنه بالاعتزاز الذي ينأى به عن اللطف والأدب .

وفي الختام نقول أن في مؤلفات جوتا فكراً كثيراً يدعو الى التفكير، وإن الحكم له بأقواله أصدق من الحكم عليه بأقوال نقاده، حتى وان كان في أقوالهم بعض الحق .

ع . ش